آثار العقلية السقيمة

فى حياة الشعوب المستعبدة

بقلم الأديب مأمون محمد منصور

قلما تصدر العقلية الناضجة أحكامها فيما يحيط بها من الشئون دون أن يكون لإلهامات الروح أثر فعال فى تهذيب ميولها ونزعاتها ، فتنطلق أحكامها حصيفة نزيهة ، آمنة مطمئنة عن معرفة جمعت الحواس ثمارها الخالدة من حدائق الأجيال الغابرة والحاضرة ، وعن خبرة باطنية لا محدودة ، يسودها ضمير حى يقظ لا تخاف منه وخزاً ولا تخشى .

وكثير من هذه العقلية يغمر الشعوب المستضعفة ، إذ قد هذبها الألم المحيق وكونها التأمل العميق ، وآثارها الأمل الغريق للالتجاء إلى ناحية الضمير . وما الضمير إلا عاطفة الروح اليقظى التى لا يتصل شعاعها إلا بالنفس الحساسة الدقيقة . والنفس الحساسة أكثر ما تكون وجوداً فى الأجواء التى غمرها أنين الوجد وغشيها موج من نضيج الألم .

كثير من هذه العقلية القوية يغمر الشعوب المستضعفة فى كثير أو قليل من نواحي الثقافة العامة . ولطالما يرى الألى تنوء سجونهم الآدمية بزلزالها وزئير أصفادها أن لا جناح عليهم إن بروا جنوح ذواتهم لمغالبة عقلياتهم الثائرة بما فى أجواء الاستعباد من خنق للحرية يمنع ينابيعها أن تتفجر . وظلام قاتم من سواد الظلم يحيل الحركة إلى سكون عميق . ونير فادح تنوء بكلكله النفوس ، فكان تسامحاً ، وكان صبراً لا يفسرهما إلا الضعف وحده .

قليل من أولئك غمرتهم يقظة الروح القوية ، فثاروا للكرامة ، وتمردوا على الأصفاد . حملوا لواء الزعامة وهاجموا وسائل الاستعباد بعزم يغالب الموت فينتصر ، وثبات وإيمان يعالجان اليأس فيندثر .

ولكن . . . ولكن . . .

ولكن كلما كهربوا النفوس بتيارات اليقظة ، ومزقوا أغلال النقمة ، وسدوا على المستعمر منافذ التسلط ، فضاقت به الحيل . وأوجس الغرق في لجة دامية من عصير ظلمه . استعان بالعقلية السقيمة من بين ضحاياه ليسترد بها نفوذه أحقابا ، و يصليهم من منافذ ضعفها عذابا .

وينكل ، بهم على يقظتهم عقاباً ، ويهدم مابنوا لمجدهم فلا يخشى حسابا . وينال من شعورهم وتراثهم ، وجهودهم ، بقدر مايحيل حياتهم جحيما ، ومتاعهم نهباً ، وجهودهم شتاتا ، وديارهم خرابا .

حتى إذا بلغ الغاية ، صنع صنيعته القاضية . فكان كمثل الشيطان إذ قال للانسان : اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك يامن خان أمه وأبيه واستل خنجرى فى صدر مصره التى تأويه فما رعى لقومه عهداً ، ولا لعهده كرامة . فكيف أبقي عليه وأصطفيه ؟ .

خذوه فغلوه ، ومن نار ظلمه صلوه . فقد أغراني بكم ، وحرضني عليكم ، وكشف لى عن مواطن ضعفكم ، فعاقبوه وانتظروني حتي أنقذ الغريق ، فى ناحية من نواحى الرقيق ، أو عاتبوه وهادنوني حتي أستفيق ، وآتيكم بوثيقة التوفيق . فالاتفاق خير لجدى ومجد شعبكم العريق .

إن هذه العقلية السقيمة المجردة والتى لاتدين لغير المادة ، ولاتؤمن إلا بالنفس الأمارة . مرت عليها ظروف عسيرة يتميز فى ضوئها الطيب من الخبيث . وأحاطت بها عوامل غير منظورة ، فهى أحق برحمتكم أن ترحموها وربما أفادتكم حيناً فأشفقوا عليها أو أهملوها . فمن كانت هذه العقلية صدى نواه ، فبأى عاطفة يستبين الموت من الحياة . . . ؟

هذه هى العقلية السقيمة ، إنها لأشد فتكا ، وأهول نذيراً .

وإنى لأقسم بالحرية التى تقدسها البشرية منذ أول ذرة فى الوجود لآخر لحظة فى السرمدية ، أن لا يذل شعب إلا وكان بعض بنيه سبب إذلاله وشقوته ، وما تمكن الاستعمار فى أى جيل من قوم بغير معونة العقلية السقيمة .

هاهو التاريخ كله عبر ، ولكن لمن يتذكر أو يخشى .

وكم من مآس تداولها الايام أخذاً وردا ، وذكريات تهاداها الأجيال جزراً ومداً ، ولما تتصل العقلية السقيمة بضميرها بعد ، أو تخشى نقمة الشرق فى نهضته الفتية ، فلا تزال تمد الاستعمار مداً ، وتمكن له فى أمصارها زرعاً وحصداً .

ها هى الهند ، والعراق ، وسوريا ، وشرق الاردن ، وعدن ، وفلسطين . شرقى وادى الاهرامات . وطرابلس ، وتونس ، ومراكش ، والجزائر ، غربيه . وكلها تئن أنين النيل ، وتلعن العقلية السقيمة فى كل جيل .

يا أقطاب العقلية السقيمة !

إن كان فيكم من يفخر بفضيلة فلتت منه لشعبه قضاء وقدراً ، فهيهات أن تغسل وصمة العار التى وصمتكم بها الانسانية المعذبة ، وقلما تقبل الاجيال لكم توبة ، لأنكم الأيدى الجريئة للصوص الاستعمار . فأنتم أبالسة البشر ، وأعداء الانسانية ، وخصوم الفضيلة !

مأمون محمد منصور